امَيَّة بن ابي الصَلْت

بقلم الاديب ميشيل سليم كيد

ذهب قوم يبرزون شعر امية ،
وكذلك اندراس الكلام .
(العيني)

من الشعراء الجاهليين الذين قلّ ذكرهم ، وخفت صيتهم ، امية بن ابي الصَلت . هو احد افذاذ الشعر الجاهلي واحدى دُرره الخوالي ، سكتت عن ذكره الالسن ، وكتمت عنه الافواه ، عدّة اجيال ، إمّا لهوى في النفوس ، وإما لذهابه من الذاكرة ؛ فبخس قدره ، وضاعت منزلته ، وهو أحقّ أن يرفع ويكرّم ، ويتبوأ مركزه بين مبرّزي الجاهلية .

وقد اختلف رواة شعر امية في تقدير منزلته وتخصيص طبقته ، فمن قائل يعدّه من شعراء الطبقة الاولى ، وآخر يضعه في الطبقة الثانية ، وآخر يضعه في الطبقة الثالثة . ولكن اذا نُظر اليه بعين مجرّدة عن الاهواء ، ونفس لا تعرف المغالاة ، وفؤاد لا يميل مع التعصب ، وُجد جديرًا بان يوضع في مصاف شعراء الطبقة الاولى . قال الكميت : « امية اشعر الناس ، قال كما قلنا ولم نقل كما قال » . وقال ابو عبيدة : « اتفقت العرب على ان اشعر اهل المدن ، اهل يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف ، وان اشعر ثقيف امية بن ابي الصلت » .

قلنا ان امية اختلفت في تقديره الرواة ، ومن اختلف عليه الناس وتخاصموا لاجله ، كان لا شك عظيماً ، فلماذا يأبه القوم لرجل ، ليس له منزلة أو مكانة في الرجال أو الشعراء ؟ . ولماذا يضعه احدهم في مرتبة فيأتي آخر فيسقطه عنها ؛ وآخر يعظمه فيرفعه ، بعد كرّ اجيال وقرون ، أليس لانه كان عظيماً ؟ أليس لانه كان مبرزًا على اقرانه ؟ وأليس في هذا الدليل الكافي ان في الافئدة لهوى ؟ وفي النفوس لدفائن ؟ حقاً ، لقد كان عظيماً في اعماله ، عظيماً في الشعراء ، وعظيماً بين الاقران !

الرجل

نشأته

امية بن ابي الصلت عبدالله بن ابي ربيعة بن عمرو بن عوف ، الثقفي ، العدناني، لا يُعرف وقت مولده، كما انه لا يجزم تاريخ موته. كثر فيه الاختلاف كما اختلف في شعره.

وما ترعرع حتى ظهر ذكيًا ، ميالًا للعلم ، فقرأ كل ما وقع بين يديه من الكتب القديمة ، فدرس السريانية حتى قيل برع فيها ، وتهذّب احسن تهذيب، قال مُصعب بن عثمان : كان امية بن ابي الصلت قد نظر في الكتب وقرأها ، ولبس المسوح تعبدًا . وحين شبّ قدم الى مكة ، وكان يستفتح كتبه : « باسمك اللهمّ » . فجعلوها اول كتبهم بدلًا عن « بسم الله الرحمن الرحيم ». ثم سافر الى الشام ، وهي اذ ذاك في اعلى مكان من العلم ، فجالس العلماء واغترف من مناهل العلم ما امكنه

اتصاله بعبدالله بن جدعان التّالبيّ

وكان بمكة حين قدومه اليها ، عبدالله بن جدعان بن عمرو بن سعد ، التالبيّ ، وكان رجلًا كريمًا ، وسيدًا جوادًا ، من قريش ، يصل الرحم ويطعم المسكين ، فالتصق به امية ، وامتدحه ، فقرّبه عبدالله ، وأحسن اليه ، وأنعم عليه.

وبالغ من احسان عبدالله ان امية دخل عليه يومًا ، وعنده أمتان دعاهما بجرادتي عاد ، فقال له عبدالله : « لأمر ما اتى بك ؟ » فقال امية : « كلاب نبحتني ونهشتني » فقال له عبدالله: « قدمتَ عليّ وانا عليل من حقوق لزمتني ، ونهشتني ، فانظرني قليلًا ما في يديّ ، وقد ضمنتك قضاء دينك، ولستُ بسائل عن مبلغه. » فمضى امية ، واقام اياماً. ثم اتاه وقال له هذه الأبيات ، وهي من ارقّ واعذب ما يقال عند السؤال والمديح:

أأذكر حاجتي ، ام قد كفاني حياؤك ؟ ان شيمتك الحياء
وعلمُك بالامور ، وانت قرمٌ ، لك الحسب المهذّب ، والسّناء

خليلٌ لا يغيّره صباحٌ من الخُلُق الجميل ولا مساءُ
وارضُك كلُّ مكرمةٍ بنتها بنو تيمٍ وانت لها سماءُ
اذا اثنى عليك المرءُ يوماً كفاه من تعرّضه الثناءُ
فهل تخفى السماءُ على بصيرٍ ! وهل بالشمس طالعةً خفاءُ !

فلما انشده امية هذا الشعر كانت عنده قينتان ، فقال: « خذ ايتهما شئت » فاخذ احداهما ، وانصرف بها . فمر بمجلس من قريش ، فلاموه على اخذها ، وعذلوه ، وقالوا لهُ : « لقد لقيته عليلًا ، فلو رددتها اليه فان الشيخ يحتاج الى خدمتها ، وكان ذلك اقرب لك عنده ، واكثر من كل حقّ ضمنه لك » فأثّر هذا القول في امية عظيماً ، ووقع منهُ اليماً ، فتكص ، وحين اتاه بها ، قال لهُ عبدالله : « لمَ رددتها ، ألعلّ قريش أخذوك على اخذها وقالوا لك كيتاً وكيت .» وذكر لأُميّة ما قالهُ القوم ، فقال امية : « والله ما اخطأتَ يا ابا زهير » فقال ابن جدعان : « فما الذي قلتَه في ذلك ؟ » فقال امية :

عطاؤك زينٌ لامرئٍ ان وصلتَه بذلٍ ، وما كلُّ العطاء يزينُ
وليس بشينٍ لامرئٍ بذلُ وجهه اليك كما بعض السؤال يشينُ

قيل : فكاد عبدالله يثب عن فراشه . وقال لاميّة : « خذ الاخرى » واخذها جميعاً وخرج .

ولبث اميّة منقطعاً الى ابن جدعان الى ان وافت هذا المئة ، ويحكى ان امية دخل عليه ، وهو يجود بنفسه ، وقال لهُ : « كيف تجدك ، ابا زهير ؟ » قال عبدالله : « اني لمدابر ! » فقال اميّة :

علم ابن جُدعان بن عمرٍو م انه يوماً مُدابرْ
ومسافرٌ سفرًا بعيدًا م لا يؤوب به المسافرْ
فتدورُه بفنائهِ للضّيف ، مُقرعةٌ زواخرْ
بذّ المعاشر كلها بالفضل ، قد علم المعاشرْ !
وعلا علوَّ الشمس حتى م ما يفاخره مفاخرْ
دانت له ابناء فهرٍ م من بني كعبٍ وعامر
انت الجوادُ ابن الجوا د بكم يُناقر من يُناقرْ !

نصرانيته

يدلّ على تنصّر اميـة ذكره الكثير للملائكة ، وتمييزه بين طبقـاتهم ورتبهم كالكاروبيم ، والحرّاس ، وجبرائيل ، وميخائيل . الخ . التي لم تكن معروفـة انذاك إلّا عند النصارى واليهود . قال ، ودعا ميخائيل ميكالا ، والكروبيم كروبية ، بعد ان وصف العزّة الالهية أجلّ وصف :

امينٌ لوحي القُدس جبريلُ فيهم ، وميكالُ ، ذو الرُّوح القويّ المسدَّدُ
وحرّاسُ ابواب السّماوات دونهم قيامٌ عليها بالمقاليد ، رصّدُ ،
ملائكةٌ لا يفترون عبادةً كروبيّةٌ منهم ركوعٌ وسُجّدُ :
فساجدُهم لا يرفع الدّهر رأسه يعظّم ربًّا فوقه ، ويمجدُ ،
وراكعهم بحنو له الدّهر خاشعًا يردّد آلاء الاله ، ويحمدُ !

ومما يزيدنا ثقة من نصرانيته : ١ً – كونه من اياد ، وهي القبيلة المعروفة بنصرانيتهـا لدى جميع كتاب العرب ، فهي القبيلة التي ابتنت ادبرة كثيرة في ديارهـا ، كدير قرّة ، ودير السوا ، وغيرهما . ٢ً : كان من الحنفاء وقـد قال حين دنت ساعته : « قد دنت ساعتي ، وهذه المرضة منيّتي ، وانا اعلم ان الحنيفية حق . . . » والحنيفيـة في الجاهلية يراد بها النصرانية ، أو شيعة من شيعها (١ . ٣ً : اطلاعه على الاسفار القدسة والانجيل ودرسه لها . ٤ً : دخوله كنائس النصارى واجتماعـه برهبانها . ٥ً : معرفته للغة السريانية لغـة نصارى العراق . . . وفي شعره من منتخبات الكتب المقـدسة ، والعقائـد الدينية كوصفه الجميل للعزّة الالهية ، والملائكة والدينونة ، والجحيم والنعيم ، وبشارة العذراء ، وميلاد المسيح العجيب ، ما يدلّ صريحاً على تنصره (٢

شعره والفرائد

زعم غير واحد من كتاب العرب الاقدمين ، ان امية استقى كثيرًا من

---

١) جلّ ما يُعرف عن اتباع الحنيفية انهم كانوا من الموحّدين ، ولا يمكن اثبات شيء فوق ذلك (ه . ل .)

٢) الاب لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، ص : ٤٢٧ .

افكاره من القرآن ، ونسج على منواله (١ . ولكن ، اذا بحثنا واعملنا الروية ، وجدنا ان أمية قد سبق النبي بزمن كثير في تعاليمه ، وفلسفته الدينية ، وانه حين قضى لم يكن القرآن قد انتشر الانتشار الكافي ، ولم يكن قد أثر وتغلغل في العقول والافكار ، يدلنا على ذلك شواهد كثيرة نراها بين طيات الاغاني ، وغيره من الكتب ، تثبت لنا جلياً ان العرب حتى بعد الهجرة بكثير وفتوحهم الشام ، لم يكونوا قد تخلوا عن عاداتهم ونزعوا افكارهم في الجاهلية ، بل قضوا كثيراً من الزمن متأثرين بما كانت عليه اجدادهم . واذا علمنا ان نبي المسلمين كان عارفاً بكثير من تعاليم امية ، وملماً بكل اشعاره اتم الملام ، فلم لا يكون قد استمد هو تلك الافكار التي نراها في القرآن من امية ؟(٢ ولماذا لا تكون تعاليم امية النبع الذي استقى منه ، والروض الذي اقتطف منه وروده ؟ أليس هذا اقرب الى العقل وأدنى الى الصواب ؟ فاذن لا يأخذنا العجب ، ولا يجنح بنا العقل ، فننشط عن معقل الحق اذا ما عثرنا في طريقنا على شبائه بين افكار امية والقرآن !

شعره والعزة الالهية

كان امية متديناً ورعاً ، مؤمناً بالله ، خلا شعره خلواً تاماً من اثار الشرك ، فلم يذكر الاصنام المعروفة في ايامه ، والمتفشية بين اكثر العرب عموماً وسكان الحجاز خصوصاً ، وان كانوا تابعين لاحدى الشيع النصرانية المرطوقية ، كاللات والعزى وغيرهما . أليس هذا امرؤ القيس ، الثابتة نصرانيته دون باقي شعراء الجاهلية ، مرّ بتبالة ، بعد ان استأجر للثأر لابيه رجالاً ، وبها للعرب صنم تعظمه يقال لهُ ذو الخلصة ، فاستقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة ، الآمر ، والناهي ، والمترّبص . فأجالها مرات ثلاث ، فخرج له فيها جميعاً الناهي ، فجمعها وضرب بها وجه الصنم فكسرها ، وقال : ويحك لو ابوك قُتل ما عقتني . وهذا ابن ابي سلمى زهير ، ألم يحلف بالكعبة ، مع تنصره فقال :

---

١) كنا نودّ لو درس حضرة الكاتب صحة نسبة بعض القصائد المنسوبة الى امية ، فاننا نلاحظ تقليد القرآن خاصة في الآثار المنحولة (ه . ل .)

٢) صرّح بهذا الرأي كايتان مراراً ، ولكنه لم يصادف نجاحاً لدى المستشرقين (ه . ل .)

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجالٌ بنوه من قريشٍ وجُرهُمِ
يميناً لنعم السيدان وجدتما ... على كل حالٍ من سحيلٍ ومُبرَمِ

وان يكن ابن حجرٍ استقسم بالصنم فما فعل ذلك إلا عن جهالة، كما يذهب بعض جهّال عصرنا ويستشيرون السحرة والمنجمين وضاربي الرمل وغيرهم. وكذلك ابن ابي سلمى، فحلفه آتٍ عن عادة كانت متفشية في ايامه.

اما امية فكان بمعزل عن شعراء الجاهلية، واقفاً بعيداً عن امثال هذه الترّهات، وهذا مما يزيد في شعره قيمة ويكسبه حلة النقى، ويجعله الى عواطفنا اقرب دون اكثر الشعر الجاهلي ... هوذا ابيات يظنها المرء بنت افكار احد الشعراء المعاصرين، لاول وهلة، يذكر بها الله عزّ وجلّ، وتكوين البرية، وها اننا نجدها اقرب الى مزاجنا وادنى الى طبيعتنا من أشعار الشنفرى والنابغة وغيرهما:

الهُ العالمين وكل ارضٍ ... وربُّ الراسيات من الجبالِ
بناها وابتنى سبعاً شداداً ... بلا عمدٍ يُرَيْنَ ولا رجالِ
وسوّاها وزيّنها بنورٍ ... من الشمس المضيئة والهلالِ
ومن شهب تلألأ في دجاها ... ثواقبها اشدُّ من النصالِ
وشقّ الارض فانبجست عيوناً ... وانهاراً من العذب الزلالِ
وبارك في نواحيها وزكّى ... بما ما كان من حرثٍ ومالِ

واذا ما انتهى من ذكر اعمال القدرة العلوية، عدل فذكّرنا ان الدنيا دار فناء، وان كل حيٍّ «يوماً على آلة حدباء محمول» وان عاش وعمّر، ثم يذكر حكمته تعالى، فالخطأة يزجون الى الجحيم بينما النقاة ينعمون بالنعيم.

فكلُّ مسافرٍ لا بدَّ يوماً ... وذي دنيا يصير الى زوالِ
ويفنى بعد جدّته ويبلى ... سوى الباقي المقدّس ذي الجلالِ
وسيق المجرمون وهم عراةٌ ... الى ذات الفظاعِ والنكالِ
فنادوا ويلنا ويلاً طويلاً ... وعجّوا في سلاسلها الطوالِ
فليسوا ميّتين فيستريحوا ... وكلُّهمُ ببحر النار صالِ
وحلَّ المتّقون بدار صدقٍ ... وعيشٍ ناعمٍ تحت الظلالِ
لهم ما يشتهون وما تمنّوا ... من الافراح فيها والكمالِ.

وفي قصيدة اخرى يمدح كمالاته تعالى ، بما يعجز عنهُ كثير من افذاذ الشعر ، وهي من ارق واجود ما قيل في مثل هذا :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا ... فلا شيء اعلى منك مجداً وأمجدُ
مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ ... لعزته تعنو الوجوه وتسجدُ
عليه حجاب النور والنور حوله ... واطارُ نورٍ حوله تتوقدُ
فلا بصرٌ يسمو اليه بطرفه ... ودون حجاب النور خلقٌ مؤيدُ

ومنها :

فسبحان من لا يعرف الخلقُ قدرهُ ... ومن هو فوق العرش فردٌ موحدُ
ومن لم تنازعهُ الملائك ملكهُ ... وان لم تُفرِدهُ العبادُ فمفردُ
مليكُ السماوات الشدادِ وارضها ... وليس بشيء عن قضاه تأوُّدُ
هو الله باري الخلق والخلقُ كلهم ... اماء له طوعاً جميعاً وواعبدُ
وانى يكون الخلق كالخالق الذي ... يدومُ ويبقى والخليقةُ تنفدُ
وليس لمخلوقٍ من الدهر جدةٌ ... ومن ذا على مرّ الحوادث يخلدُ
وانى ولا يبقى سوى الواحد الذي ... يُميتُ ويحيي دائباً ليس يجمدُ
تسبحهُ الطير الجوانحُ في الحفى ... واذ هي في جوّ السماء تصعّدُ

فاين هذا الاسلوب السهل الرقيق والوصف البليغ من سجع شعراء عصرنا ، وتنسيق كلامهم ، وزخرفة حواشيهم . فان القارئ لشعر امية يكاد يشعر نفس شعور قائله حين نطق بهِ ، بينما يرى في شعر هؤلاء «معجماً» ، اذا صحَّ ان نسميه كذلك ، لكل ما نعت بهِ الناعتون وقيَّده لغويو العرب في كتبهم من صفات العزّة الالهية . فبعُد شعرهم عن الضرب على وتر الاحساس وشط عن القصد ، فليس يشتم منهُ رائحة خضوع أو تعبّد ، وليس يثير في النفس خشوعاً او تقوى ، أو على الاقل ينبئ عن تلك العواطف التي جالت بين جنبي قائله . ورأينا ان امثال هذا الشعر اولى بها ان يقرأها من يحبّ ويريد ان يجمع لدينه «قائمة» أوصافه تعالى واسمائه الحسنى ، فانها تغنيه عن تقليب صفحات الكتب للعثور عليها .

(للبحث صلة)